أنواع الصبر

للصبر أنواع عدّة بحسب المقامات والأحوال والمقاصد ، وفي ذلك أقوال كثيرة وإيضاحات عديدة وتفسيرات متنوّعة فاضت بها خواطر العلماء ، وفاهت بها ألسنة الصالحين ، ودبّجتها أقلام المفكّرين من سلفِ أُمَّةِ الإسلام وخلفها . ولا بأس في هذا الفصل أن ننقل بعضها تنويراً وتذكيراً وتعبيراً ، لترتسم في نفس المؤمن صورة الصَّبْر في معانيه واضحةَ المعالم فينتهجه في حياته ، وتصطبغ بأنواره أحوالُه في أقواله وأفعاله .

قالوا : الصَّبْرُ على ثلاثة أنواع :

صَبْر علىٰ طاعة الله ، وصَبْر عن معصية الله ، وصَبْر على امتحان الله .

* فأمَّا الصَّبْر على طاعة الله :

فهذا ما أشار إليه قول ربِّنا تبارك وتعالىٰ : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه : ١٣٢] .

وقوله : ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة : ٤٥] .

وهو يتعلَّق بكسب العبد ، ويكون بثلاثة أشياء :

بالمحافظة علىٰ الطاعة دواماً ، وبرعايتها إخلاصاً ، وبتحسينها علماً .

أما الشيء الأوَّل ـ فهو الذي أشار إليه ربُّنا سبحانه وتعالىٰ بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج : ٢٣] .

وأشار إليه الرسول الكريم ﷺ بقوله : « أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ »[1] .

وبقوله : « يا عبد الله لا تكن مثل فلانٍ كان يقوم الليل فترك قيام الليل »[2] .

وأما الشيء الثاني ـ وهو أن يكون الباعث عليها وجه الله تعالىٰ ، فهذا الذي أشار إليه ربُّنا تعالىٰ بقوله :

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾

[المؤمنون : ١ـ٢] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

وبقوله : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البيّنة : ٥] .

وأشار إليه الرسول الكريم ﷺ بقوله :

« إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يقبل العمل إلاّ ما كان له خالصاً ، وابتُغي به وجهه »[١] .

وأما الشيء الثالث : وهو وقوع الطاعة علىٰ مقتضىٰ العلم وموافقتها للشرع ومتابعتها للسنَّة ، فهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله : « صلُّوا كما رأيتموني أُصلي »[٢] ، وقوله : « خُذوا عنِّي مناسككم »[٣] ، كما أشار إليه في حديث المسيء صلاته .

*** وأمَّا الصَّبْرُ عن معصية الله :**

وهو يتعلَّق ـ أيضاً ـ بكسب العبد ، ويكون بمطالعة الوعيد ، وبمحاربة النَّفس ومنعها من مزاولة ما يُوبقها يوم الدِّين ، ويسوقها إلى العذاب الشديد . وأحسن من ذلك

---

(١) رواه أبو داود والنَّسائيّ .
(٢) أخرجه البخاري .
(٣) أخرجه مسلم .

الصَّبْر عن المعصية حياءً ، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله في حقِّ سالم مولىٰ أبي حذيفة : « إنَّ سالماً شديدُ الحبِّ لله تعالىٰ لو كان لا يخاف الله ما عصاه »[1] ؛ لأنَّ مَنْ وازعُه الخوفُ ومطالعةُ الوعيد قلبُه حاضر مع العقوبة ، فهو في اجتناب المعصية مراعٍ لجانب نفسه وحمايتها من العقاب ، ومَنْ وازعُه الحياءُ قلبُه حاضرٌ مع الله ، فهو في اجتناب المعصية مراعٍ لجانب ربِّه وملاحظة عظمته ، وهذا مِن مقام الإحسان الذي فسَّره رسول الله ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنَّكَ تراه . . . »[2] .

وقالوا : الصَّبْر على أداء الطاعات أكمل من الصَّبْر على اجتناب المحرَّمات ، فإنَّ مصلحة فعل الطاعة أحبُّ إلى الشَّارع من مصلحة ترك المعصية ، إذْ ترك المعصية إنَّما كان لتكميل الطاعة ، والطاعة أمر ، وجُعِل النَّهي عن المعصية صيانة لذلك الأمر ، فهو بمنزلة الحِمْية للحفاظ على سلامة البدن ، ومفسدة عدم الطاعة أبغض وأكره من مفسدة وجود

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) رواه مسلم .

المعصية ، لأنَّ مخالفة الأمر أشدُّ من مخالفة النَّهي ، فالأوَّل سببه الكبر والعناد والثاني سببه الغفلة والنِّسيان .

وأما الصبر على امتحان الله :

وهو ما لا كسب فيه للعبد ، ويكون بملاحظة حُسْن الجزاء ، وانتظار رَوْح الفرج ، وتهوين البليَّة بعَدِّ أيادي المنن ، وتذكُّر سوالف النِّعم .

أمّا ملاحظة الجزاء :

فهو نحو قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] . ونحو ما جاء عن فتح الموصلي :

أنَّه مرَّت به امرأة متعبِّدة يُقال لها (موافقة) ، فعثرت ، فسقط ظُفْر إبهامها ، فضحكت ، فقيل لها : يا موافقة ، يسقط ظُفْر إبهامِك وتضحكين؟ فقالت : إنَّ حلاوة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه .

وأما انتظار رَوْح الفرج :

فهو نحو قوله تعالىٰ : ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] .

وقوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢ـ٣] .

ونحو قوله ﷺ : « واعلم أنَّ النَّصْر مع الصَّبْر ، والفرج مع الكرب ، وأنَّ مع العُسْر يُسْراً »(١) .

ومهما بلغت شدَّة البلاء فإنَّها تهون مع انتظار الفرج ، حيث يذوق العبد لذة الأمل بالفرج من الله ، فينسى ألم الامتحان لأنَّه في انتظار الفرج يصبح في عبادة ، وهذا ما بيَّنه رسول الله ﷺ حيث قال : « انتظار الفرج عبادة »(٢) .

وأمَّا تهوين البليَّة بعدِّ أيادي المِنَن وتذكُّر سوالف النِّعم :

فهو نحو قوله سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

وقوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] .

ومن ذلك ما جاء في كُتُب التفسير أنَّ سيِّدنا أيُّوب عليه

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه ابن عدي والخطيب البغدادي (وهو ضعيف) .

السلام لمَّا مرض وطال وجعه سألته زوجتُه أن يدعو الله كي يفرِّج عنه ، فقال لها : عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما ابتُليت ببلاءٍ إلاّ كان لله تعالىٰ عليَّ فيه أربع نعم :

إذْ لم يكن في ديني .

وإذْ لم يكن أعظم .

وإذْ لم أحرم الرِّضا به .

وإذْ أرجو الثواب عليه .

وقالوا : إنَّ الصَّبْر ينقسم بنوع آخر من القسمة على ثلاثة أنواع :

صَبْر بالله ، وَصبْر لله ، وصَبْر مع الله .

فالصَّبْر بالله :

هو الاستعانة به ، ورؤية أنَّه هو المصبِّر ، وأنَّ صَبْر العبد بربِّه لا بنفسه ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل : ١٢٧] . يعني إنْ لم يُصبِّرك هو لم تَصْبِر ، فيفنى العبد

عن نفسه ، ويتحقَّق بنور « لا حول ولا قوة إلاّ بالله » عِلْماً ومعرفةً وحالاً .

والصَّبْر لله :

هو أن يكون الباعث علىٰ الصَّبْر محبَّة الله وإرادة وجهه والتقرُّب إليه لا إظهار قوَّة النَّفس والاستحماد إلىٰ الخَلْق .

والصَّبْر لله فوق الصَّبْر بالله وأجلُّ شأناً ، لأنَّ الصَّبْر لله متعلِّق بالإلهيَّة ، والصَّبْر به متعلِّق بالربوبيَّة ، وما تعلَّق بالإلهيَّة أكمل وأعلىٰ مما تعلَّق بالربوبيَّة .

ولأنَّ الصَّبْر له عبادة ، والصَّبْر به استعانة ، والاستعانة وسيلة ، والعبادة غاية ، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها .

ولأنَّ الصَّبْر له صَبْر فيما هو حقٌّ له محبوب له مرضيٌّ له ، والصَّبْر به قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون في مكروه أو مباح ، فأين هذا من هذا؟

والصَّبْر له منزلة الرُّسل والأنبياء والصدِّيقين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [الرعد : ٢٢] .

وقال : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ الطور : ٤٨] .

وأمَّا الصَّبْر به فهو مشترك بين المؤمن والكافر والبرِّ والفاجر ، فكلُّ من شهد الحقيقة الكونيَّة صَبَر به .

والصَّبْر مع الله :

هو دوران العبد مع مراد الله الدينيِّ في أحكام دينه وأوامر شرعه ، يصبر نفسه معها ، فيتوجَّه معها أينما توجَّهت ركائبها ، وينزل معها حيث استقلَّت مضاربها ، يجعل نفسه وقفاً علىٰ أوامر الله ومحابِّه .

وهو أشدُّ أنواع الصَّبْر وأصعبها ، وهو صبر الصدِّيقين ، وهذا ما قصده عمرو بن عثمان بقوله : هو الثبات مع الله ، وتلقِّي بلائه بالرّحب والسَّعَة .

* * *